النسيج عند الأقدمين

خُلق الانسان على الأرض وهو جاهل بما حباه الله تعالى من نعم تحوط به، ولجهله فقد صعب عليه تسخير البيئة لصالحه، الا بعد صراع طويل وتجارب قاسية مر بها.وبمرور الزمن عرف مثلا ان جعل حزمة من الحشائش والقصب متقاطع بعضها مع البعض ييسر له إنتاج أشياء مفيدة كالسلاسل والحصران. وعرف غيره من أولي الذكاء والفطنة انه اذا مالوى الحزم وثناها وجمع بعضها الى بعض فسيكون نتاجه اشد صلابة واكثر مقاومة وهذا مانسميه اليوم بالنسيج. وكانت البيئة كريمة مع الإنسان إذ وفرت له مواد أوليّة تدخل في صناعة النسيج او صنع الملابس هي القطن والحرير والصوف والكتان.(١)

بدأت صناعة النسيج بسيطة وبدائية لاتتعدى حدود البيت ثم آلت الى صناعة مهمّة وضرورية، وتحول العمل فيها الى أماكن خاصة تتولاها أيدي عمال مختصين.وتتصف ملابس الانسان في هذه المرحلة ببساطتها وافتقارها الى التانق والإبداع ودقة الصنعة.

صنف الأقدمون الصناعات الى نوعين،الضرورية والشريفة.وتشمل الضرورية البناء والفلاحة والخياطة والتجارة والحياكة.أمّا الصناعات الشريفة فهي التوليد والكتابة والوراقة والغناء والطرب.(٢)

ويذكر ابن خلدون ان ملابس العرب على نوعين:الاول-ملابس البدو، وبما انهم اناس اتسموا ببساطة عيشهم فانه من البديهي ان يميلوا الى انتقاء الثوب البسيط، وزِيّهم في اغلب الاحيان، يتألف من قماش يشتملون به.

والنوع الثاني- ملابس أهل الحضر او المستوطنين وهؤلاء يقطّعون القماش الى أقسام عدة تتلام ونسبة كل عضو في الجسم، ثم يوصلون

هذه القطع بعضها مع بعض بعملية تعرف بالخياطة حيث تصبح ثوبا واحدا، وهو دليل على اهتمام أهل المدن بلباسهم ومظهرهم.اما زي الحج فهو رداء ذو قطعة واحدة حُرِّمتْ خياطته.[٣]

وبما ان اللباس رافق الانسان منذ زمن طويل فكان لابد وان تدخل عليه تعديلات كثيرة توازيا

مع تطور الانسان نفسه، فأضاف على ملابسه النقوش والزخارف، ولّونها بألوان مختلفة وراح

يخصص لكل مناسبة زياً خاصاً بها. ولم تلبث الملابس ان اصبحت تعكس الصورة الاجتماعية لمرتديها وتعطي انطباعا عن الحالة الاقتصادية التي يعيشها الفرد.

اشتغل كثير من أشراف العرب والمسلمين في تجارة المنسوجات مثل،ابي طالب والخليفة ابي بكر (رض)، والخليفة عمر بن الخطاب (رض) وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن طلحة الذي كان خياطا.[٤]

العرب وصناعة النسيج

حرر العرب المسلمين بلادا لها شهرة عريضة في انتاج الأقمشة على اختلافها كمصر والعراق وبلاد الشام. وكان من الطبيعي ان تتأثر مصانع النسيج بالاحداث الجديدة بيد انه سرعان ما استعادت نشاطها بعد استتباب الأوضاع السياسية والداخلية.

مال رجال الادارة العرب المسلمون الى ترف الحضارة بما في ذلك اتخاذهم اعدادا كبيرة من الثياب ذوات الاشكال والالوان المختلفة.وقد ظهر في البدء تضارب بين التقاليد السائدة في صناعة المنسوجات وتعاليم الدين الاسلامي من اوجه عدة منها ان الاسلام اوصى بالاقلال

من الثياب والاكتفاء بما هو بسيط وخلوها من الزخارف وبشكل خاص المحلاة بذوات الأرواح أي الرسوم الآدمية والحيوانية.

استجابت دور النسيج لذوق القادمين الجدد، ومع ذلك وصلتنا بعض من المنسوجات عُمِلَتْ في مدينة الفيوم مزينة برسوم بشرية تحمل تاثيرات فنية قبطية وإسلامية في آن واحد. ومن معاينة هذه المنسوجات لوحظ ان النسّاج لم يتمكنوا بعد من اتقان الخط العربي لاحتواء عدد منها على اشرطة كتابية عربية وقبطية بآن واحد في حين جاءت منسوجات الدلتا بمصر متوافقة تماما مع التعاليم الاسلامية.(٥)

كان للدولة الاسلامية تأثير مباشر وفعال على تطور صناعة المنسوجات في العصور الاسلامية الوسطى، اذ لاينكر ماللنهج الذي سار عليه رجالها من فضل في دفع هذه الصناعة نحو الرقي والاتقان، فمن التقاليد التي تبنوها- كسوة الكعبة ومنح الخلع واتخاذهم ملابس كثيرة العدد ومتنوعة الاشكال بسبب اعتقادهم انها تعكس منزلة الفرد وتضفي على صاحبها هيبة ووقارا.(٦)

وقد اكد ابن خلدون حقيقة ان الامة كلما ازدهرت وتقدمت رقت صناعتها وحسنت لوجود الترف والثروة، فهما العمودان الاساسيان لقيامها وتنوع فروعها. فالدقة والتفنن لايطلبها عامة الناس، وانما يبحث عنها رجال الدولة لما تتطلبه من اموال ينبغي بذلها وصناع مهرة ومواد اولية غالية الثمن.(٧)

وهذا فعلا ماحدث حين وصلت الدولة العربية الاسلامية الى اوج عظمتها فالتفت بناتها الى الجانب الجمالي في جميع نواحي الحياة من فن وعمارة ومأكل وملبس.

نطقت كتب التاريخ والأدب بأخبار متفرقة عن الخلفاء، في العصرين الاموي والعباسي، لتصف أرديتهم واهتمامهم الواسع بها، وكيف تحولت صناعة النسيج من صناعة بسيطة وضرورية الى فن وذوق رفيع فالحقوا بقصورهم دورا خاصة وعينوا رئيسا لها رجلا ذا هيبة ووقار مهمته الاشراف على جميع العمليات التي يمر بها انتاج الثوب من نسيج وخياطة اضافة الى اشرافه على العمل وصيانة الالة.[٨] وذكر ان اول خليفة مسلم اتخذ دارا خاصة للطراز هو الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ /٧٢٣-٧٤٢م) الذي عرف بولعه بالثياب وقيل ان ما بحوزته من القمصان فقط بلغ اثني عشر الف قميص وشاعت في ايامه انسجة عديدة، واليه نسب الخز الأخضر الهشامي.[٩] كما الحق كاتب ديوانه جنادة بن ابي خالد للعمل في دار الطراز كخطاط للاشرطة الكتابية التي كانت تحلي الملابس وقد ورد اسمه على بعض منها.[١٠]

خص بعض الخلفاء الامويّن انفسهم بألوان معينة لم يسمحوا لسواهم ارتداءها فكانوا يخلعون على اتباعهم الخز بكل الوانه ما عدا الأصفر والأحمر حيث خصوا انفسهم بهما.[١١] وكان الخلفاء يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهدي والهادي والرشيد والمعتصم والواثق يرتدون الثوب مرة واحدة مالم يكن ذا شكل غريب أو من نوع نادر.[١٢]

والذي وقفنا عليه ان لكل مناسبة يحضرها الخليفة زيها الخاص فيخبرنا المقريزي في "خططه" تفاصيل مهمة عن الملابس التي كان يرتديها الخلفاء الفاطميون في أثناء الاحتفالات ومن ذلك زي الخليفة الآمر باحكام الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) في يوم عيد النحر

فيقول: خرج الخليفة في يوم التاسع من شهر ذي الحجة للسلام على اولاده واتباعه ورجال دولته وعند الفجر ارتدى بدلة النحر الخاصة بهذه المناسبة وهي ذات لون احمر قان واتجه الى المنحر المفروش بالديبقي الاحمر وبثلاث بطائن حمراء.واصطف الجزارون حوله وبيد كل منهم مِكَبّة مصنوعة من الصفصاف يتقون بها الدم الذي قد يقع على الملاءة او يصيب الخليفة، ثم يكبر وينحر الامر باحكام الله اربعا وثلاثين ناقة.(١٣)

لم يول الخلفاء المسلمون اهتماما بثيابهم فقط وانما بملابس مريديهم ايضا وذلك بإسباغ الخلع عليهم. ومنح الخلع وان كان تقليدا معروفا عند بقية الامم قبل الاسلام الا ان المسلمين اوجدوا مناسبات عديدة انتهزوا من خلالها الفرصة لتوزيع الهدايا من المنسوجات الفاخرة الصنع الأنيقة المظهر على الافراد في الاعياد الرسمية والمناسبات وفي حلقات مجالسهم على اختلافها اخذين بنظر الاعتبار قيمة ونوع الخلعة بحيث تكون متوافقة ومنزلة الشخص الاجتماعية.(١٤)

ففي مصر على سبيل المثال كان الأطلس والحرير المتعدد الألوان والملابس المطرزة بخيوط الذهب والمحلاة بالجواهر من نصيب كبار رجال الدولة، وخصص لرجال القضاء والعلماء ملابس الصوف وللخطباء الاردية السوداء.(١٥)

دور النسيج والرقابة عليها

اكدت الكتابة التي وجدت على عدد من المنسوجات المنسوبة الى العصر العباسي ان دور النسج او الطراز وجدت قبل هذا العصر، وان وجدودها لم يقتصر على مدينة السلام بل أُنشئت ايضا في مدن متفرقة

وهي على نوعين، طراز الخاصة الذي كان ينتج ثياب الخليفة، وطراز العامة الذي اوجد لسد احتياجات عامة الناس.(١٦)

اشير في "الخطط المقريزية" ان الخدمة في خزائن الكسوات التابعة للخليفة (او الخاصة) كان لها منزلة رفيعة، وهما خزانتان الأولى، تسمى الظاهرة ويتولى العمل فيها اكبر حواشي الخليفة، ويحمل اليها من دور النسيج القائمة في تنيس ودمياط والاسكندرية اقمشة متنوعة كالديبقي الملون الذي يصنع منه ملابس نسائية ورجالية، والديباج الملون والسقلاطون. ويوجد في الخزانة الظاهرة مايسمى بصاحب المقص او رئيس الخياطين ومشغل للتفصيل والخياطة. وتعمل الملابس عادة في هذا المشغل اما تلبية للطلبات الواردة اليهم او بحسب ما تدعو الحاجة اليه، وبعد الانتهاء من عملية الخياطة تنقل الاثواب الى الخزانة الثانية وتسمى بالخزانة الباطنة وهي تختص بملابس الخليفة تتولى ادارتها امرأة تعرف بزين الخزان تساعدها ثلاثون جارية. ولايغير الخليفة ملابسه الاعندها، ويلحق بها بستان من املاك الخليفة يقع على شاطئ الخليج يزرع فيه النسرين والياسمين يجلب اليها يوميا لتعطير الصناديق التي تحفظ فيها الملابس.(١٧)

تحدث المقريزي عن مراسيم لتسليم ثياب الخليفة فذكر ان وظيفة صاحب الطراز ماكانت لتعطى الا لمن له سمعة طيبة ومنزلة اجتماعية رفيعة نظرا لاتصاله المباشر بالخليفة.

ويقيم صاحب الطراز، في اغلب الاحيان، في مدينتي دمياط وتنيس، يعمل براتب شهري قدره سبعون دينارا، يساعده في مهمته مائة رجل، وتلحق بدار الطراز الخاص مراكب ثلاثة بملاحيها مهمتها نقل المنتوج الى القاهرة.(١٨)

بعد الانتهاء من اعداد الثياب بما في ذلك المظلة والبدنة ولباس يوم الجمعة، ينظم موكب مهيب يقف على راسه صاحب الطراز الذي يحل ضيفا مكرما في منظرة الغزالة التابعة للسلطان حتى وان ملك عددا من الدور في القاهرة ويعامل معاملة ضيوف الدولة. يعرض صاحب الطراز الملابس على الخليفة الذي بدوره يهديه خلعة ثمينة. واذا ماتعذر حضور صاحب الطراز فلا يحق لاحد ان ينوب عنه الا أخاه أو أبنه.(١٩)

ويبدو انه كانت لصاحب الاكسية منزلة شريفة يتباهى بذكرها اذ عثر خلال تنقيبات اثرية اجريت في مدينة الفسطاط بمصر على شاهدي قبر من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي وهما محفوظان في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة. كتب على اللوح الاول "موسى بن شريح بن جابر صاحب الاكسية"(٢٠

لم يكن طراز الخاصة يلبي حاجات الخليفة فقط بل متطلبات الدولة ايضا فمن منتوجها كان يتم تحضير الخلع التي ينوي الحاكم اهداؤها.وقد يحصل الخليفة على ثيابه عن طريق الاهداء من حكام او ملوك دول اخرى،اذ اهدت ثريا بنت الاوباري ملكة الفرنجة الى المكتفي بالله العباسي في سنة (٢٧٣هـ/٨٨٦م). هدايا كثيرة من بينها عشرون ثوبا منسوجا بالذهب.(٢١)

وأسس الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م) دارا اسماها دار الكسوة مهمتها تفصيل انواع مختلفة من الثياب ليكسو بها الناس على اختلاف درجاتهم بدلة في الشتاء واخرى في الصيف. وشمل العطاء جميع الخدم والحواشي ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كلٌ ومنزلته ابتداء من العمامة والسروال وما دونها من

الملابس وحتى المنديل كلها مصنوعة من اقمشة نفسية وصلت اثمانها الى اكثر من ستمائة الف دينار.

وخص الخلفاء الفاطميون الأمراء بغالي الثياب من الديبقي والعمـــائم المذهبة، وخلعوا على اكابر امراء الدولة الاطواق والاساور والسيوف المحلاة، وكان يهدى الى الوزير بدلا من الطوق عقد من الجوهر.(٢٢) واذا ما حدث وبليت كسوة احدهم فبامكانه استبدالها باخرى جديدة عن طريق ناظر الخزانة السلطانية.(٢٣)

ويحصل عامة الناس على ملابسهم من طرق عديدة فقد تصلهم هبات من لدن الخليفة في عيد يسمى بعيد الحلل لوجوب توزيع البدل علـــى الجميع،(٢٤) او عن طريق الشراء فهنـــاك دور حكوميـــة للنســـيج او مصانع تنتج لعامة الناس كانت تسمى بطراز العامة اسست في مـــدن اسلامية حين كان جهاز الدولة هو الرقيب الاول عليها لضمان جـــودة منتوجها.(٢٥) ويلوح لنا ان هذه المصانع تزود عادة البائعين في اسواق مراكز المدن.سواء كانت بشكل منفرد كلاً على حِدة، أو جملة متنوعة من المنسوجات. ومن تلك الاسواق الكثيرة سوق خاصة لبيع الاقمشـــة او مايسمى "بالقماش المذروع" وسوق خاص لبيع الملابس الجاهزة او "القماش المخيط"، اضافة الى اسواق خاصة بالنساء واخـــرى خاصـــة للرجال علاوة على اسواق العبي والفراء.(٢٦)

العيوب وأساليب الغش في صناعة النسيج

لم تقتصر رعاية صناعة المنسوجات على رجال الدولة فحســـب بـــل نالت ايضا اهتمام فقهاء المسلمين.وتجسد اهتمامهم بنظام الحسبة الذي

فرض قيودا صارمة على العاملين في هذه الصناعة للحفاظ على جودة المنتوج وايصاله الى المستهلك باكمل وجه فكشفوا اساليب الغش والتدليس التي لجا اليها بعض من البزازين والخياطين والرفائين والقصارين والحريرين والصباغين والقطانين والكتانين.

ويشرف المحتسب او صاحب الحسبة اشرافا مباشرا على هؤلاء ذوي المهن ففرض على من يتاجر بالاقمشة ان يتمتع بمعرفة اصول البيع والشراء وان يميز بين الحلال والحرام اسوة بما قاله الخليفة عمر بن الخطاب(رض) "لا يتجر في سوقنا الا من تفقه والا اكل الربا شاء ام ابى". كما حث الاسلام التاجر على اظهار عيوب السلعة والابتعاد عن غلبة المشتري والاحتيال عليه.[٢٧]

من وظائف المحتسب مراقبة نسيج الحاكة اذ ينبغي عليه بيعه نقيا خاليا من القشرة السوداء فربما يلجا البعض منهم الى اخفاء عيوبه بنثر الدقيق او الجص المشوي كي يبدو سطحه صقيلا لماعا[٢٨].ويؤكد كذلك اشاعة الأمانة بين الناس ذلك ان الغش لم تقتصر على الباعة فقط بل تشمل احيانا الزبون نفسه لذلك اوصى الحائك بوزن الغزل امام صاحبه قبل نسجه والاحتفاظ بجزء منه فاذا ما حدث وادعى صاحب الغزل ان الحائك أبدله بآخر اقل منه جودة عندئذ يبرز الحائك النسيج الاصلي ويقارن بينهما وفي حالة استهلاك النسيج باكمله فلا بد للحائك من حلف اليمين لتاكيد صحة اقواله[٢٩].

اوصت التعاليم الاسلامية الخياطين باستخدام الابرة الرفيعة والخيط القصير ذلك ان الخيط الطويل بطول مدة استعماله خلال عملية الخياطة عرضة لأن يتهرأ.وتحتم على الخياط ان يزن القماش امام صاحبه قبل تفصيله خاصة الاقمشة ذات الاثمان الغالية كالحرير

والديباج وان يعيده بالوزن ايضا.ومع كل هذه الاحتياطات والمراقبة عرف الخياطون اساليب غش عديدة منها اذا ما راق لأحدهم قماش فانه يقتطع لنفسه جزءا منه ثم يرش المخيط منه بالماء والملح ليصبح وزنه معادلا لوزنه عند التسليم.(٣٠)

وحذر بائعوا الحرير من خلط بين الجيد والاقل جودة، ونصحوا بتبيضه قبل صبغه وبعدم استخدام الحناء بدل الفوه فالحِنّاء تجعل الحرير لماعا زاهيا ولكن اذا ما حدث وتعرض للشمس بهت لونه.ونهى صاحب الحسبة القطانين من خلط الأبيض بالاحمر والجديد بالقديم وكذلك اوصاهم بدقّهِ مرات عدة حتى يتخلّص من القشرة والحب لأن الإبقاء على هذه المخلفات تؤثر في وزنه. ونصحوا بحفظه في اماكن جافة لئلا تثقل الرطوبة وزنه(٣١).ويحلف الرفائون اليمين ان لا يرفوا للدقاقين والقصارين ثوبا مخروقا الا بحظور صاحبه، وان لاينقل المطرز او الرقام نقش ثوب الى ثوب اخر يأتي به الدقاق او القصار. وحث المحتسب بائعي القلانس بصنعها من بقايا قطع قماش جديدة واستخدام خيوط الابريسم او الكتان المصبوغ والابتعاد عن استعمال القطع القديمة البالية المصبوغة بعد تقويتها بالشرش والنشا،(٣٢) ونهى كذلك الصبّاغينَ عن ايجار ملابس الناس اذ يعد ذلك غشا وتعديا على ممتلكات الغير.(٣٣)

زخرفة المنسوجات

تطالعنا على التحف الاسلامية المختلفة صور لأشخاص يرتدون ثيابا مزينة بأشرطة كتابية مطرزة على الرداء، وغالبا ماتحلي هذه الاشرطة اماكن معينة كالرقبة والحاشية ونهاية الاكمام والعضد.ولعله من المفيد ان نذكر ان الفنان المسلم كان يميل الى استخدام العنصر

الكتابي في تزيين ملابس كبار رجال الدولة اكثر من غيره من العناصر.وقد افادنا ذلك كثيرا وعده مؤرخو الفن الاسلامي تقليدا في غاية الاهمية بسبب ان قطعة نسيج كهذه تزودنا بمعلومات من بينها:اسم الخليفة، ولقبه، وبعض الأدعية كدوام الصحة وطول العمر، واحيانا مكان وتاريخ النسج، واسم المشرف على عملية النسج.

ويجيء اسم الخليفة احيانا مقترنا باسم احد افراد عائلته، او اسم احد الولاة المستقلين (شريطة ان يكون ولاؤه الاول للخليفة). وسار على هذا النهج النساجون الطولونيون فعن طريق منسوجاتهم توصلنا الى معرفة اسماء الوزراء والمشرفين على الصناعة او مايسمى بصاحب او ناظر الطراز. وبذلك سهل علينا الحصول على اسماء الخلفاء وألقابهم والمقربين اليهم ووظائفهم وتاريخ ومكان النسج،[٣٤] كما استفاد مؤرخو الفن الاسلامي من المعلومات المذكورة في نسبة قطعة نسيج قد ترد خالية من الاسماء او التواريخ[٣٥]وذلك بمقارنتها من حيث الشكل وطريقة النسيج والخط المستخدم في الكتابة، وبذلك يصبح الثوب وثيقة تاريخية مهمّة لايمكن الطعن بها ومثال ذلك:

قطعة من الكتان محفوظة في متحف المنسوجات بامريكا، تحمل الرقم (73.665) مصنوعة في مصر ومؤرخة (٢٤٥هـ/٨٥٩م).

يزين القطعة شريط كتابي من سطر واحد، استخدم فيه خطّ كوفيّ، ذو حروف صغيرة وخالية من الأخطاء ويتضمن الشريط:

"بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله جعفر الامام المتوكل على الله امير المؤمنين ايده الله. مما امر ابو عبد الله بن امير المؤمنين بعمله على يدي عبيد الله سنة خمس واربعين ومايتين".

وللنص اهمية خاصة فقد اشير فيه الى اسم الخليفة (جعفر) ولقبه (المتوكل)، واسم ابنه وولي عهده (ابو عبد الله المعتز)، واسم الوزير (عبيد الله الخاقاني)، ومما يؤكده هذا النص ايضا ان مهمة الاشراف على دار الطراز قد انيطت الى الخاقاني اضافة الى كونه وزيرا للخليفة العباسي المتوكل.

قسمت ادوار الكتابات التي زينت المنسوجات في العصر الفاطمي الى اربعة ادوار: الدورالاول، ويشمل الفترة بين (٣٥٩-٤١٢هـ/٩٦٩-١٠٢١م)، حكم خلالها ثلاثة خلفاء هم المعز والعزيز والحكيم. وفيه استخدم الفنان ماهو متعارف عليه من قبل، وماساهم فيه من طرفه من اضافات مهمة كمحاولته تجنب خشونة شكل الحرف واظهاره بشكل يبدو اكثر رشاقة. وعد ذلك تطورا جديدا للخط الكوفي المتميز بحروفه الصغيرة على المنسوجات الفاطمية. وغير الخطاط الخطوط المائلة التي تشبه شكل رقبة الاوز مستخدما بدلا منها خطوط عمودية تنبثق من رؤوس بعض الحروف او نهاياتها وتحلي هذه السطور العمودية مثلثات صغيرة.(٣٦)

لكن هذا الاسلوب الجديد في الكتابة جعل الفنان المسلم يواجه مشكلة ملء الفراغات الواسعة التي حدثت نتيجة لاستخدامه الطريقة الجديدة. والمعروف عن الفنان المسلم سواءاً كان عاملا في تزويق مخطوطة أم مزينا لآنية معدنية انه لايحبذ ترك فراغات في عمله حتى وان احتلت مساحات ضيقة لذلك حاول في البداية ملء جزء منها ثم لم يلبث في مرحلة متقدمة من هذا الدور ان تغلب على محنته ولم يعد يترك فراغا يذكر بين الحروف.(٣٧)

الدور الثاني: ويقع بين (٤١٢-٤٨٧هـ/١٠٢١-١٠٩٤م)، حكم في غضونها الخليفة الزاهر والمستنصر واستخدم الفنان فيها الخط الكوفي الذي يتصف بتنوع ورشاقة اشكال حروفه، مواصلا ملء الفراغات بين الحروف بزخرفة نباتية بسيطة. وفي هذا الدور فقدت الكتابة معانيها وتحولت الى عنصر زخرفي بدليل ماوصل الينا من هذه الفترة من اشرطة يتحتم على قارئها ان يذهب الى الحدس والتخمين لقراءتها. واغلب الظن انها جاءت كذلك بسبب ان الاشرطة موضوعة للزينة ليس الا، ولاتراعى والحالة هذه اهمية لمعاني الكلمات او الجملة. لقد ضحى الخطاط بالجوهر في سبيل المظهر فراح يخط حروف الكلمات على هواه حيث اتتنا الكثير من الكتابات بأخطاء املائية واضحة. وفي نهاية هذا الدور استخدم خط جديد اضافة الى الكوفي هو النسخي.

الدور الثالث: وينحصر في الفترة بين (٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م) وفيها تربع على عرش الخلافة الخليفتان الآمر والمستعلي.في بداية الدور تردد الخطاط في استخدام الخط النسخي ولم يلبث ان عاد لاستخدامه.[٣٨]

الدور الرابع: يشمل السنوات (٤٩٥-٥٦٧هـ/١١٠١-١١٧١م) حكم خلالها المفيد والفائز والحافظ.وقد استخدم الخط النسخي مقرونا بخط اخر جديد يحمل صفات مشتركة من الخطين الكوفي والنسخي.[٣٩]

وأستخدمت تصاوير ذوات الارواح لتزيين اشرطة المنسوجات ولكن على نطاق محدود.ويعزز الدكتور صلاح العبيدي ندرة وجود الزخارف الآدمية والحيوانية الى اسباب متفرقة منها كراهية الاسلام لتصوير الكائنات الحية التي تضاهي خلق الله، مضيفا الى ان اللباس هو انعكاس لشخصية صاحبه فمن غير اللائق مثلا ان يظهر رجل

مرتديا قميصا عليه صورة انسان او حيوان.[٤٠] فالمسلم قد يصلي ولايجوز والحالة هذه ان يحضر صلاة في مسجد او حلقة دينية مرتديا زيا كهذا ذلك ان الاسلام يحث على الظهور بشكل لائق ووقور اثناء تادية الشعائر الدينية، ناهيك عن ان قطعة النسيج اذا ما زينت بذوات الارواح ثم قصت على هيئة سروال او قميص فان ذلك من شانه تغطية مساحات مرسومة بين طيات الصدر او تحت الاكتاف او اسفل الجيوب او ان تقص ليتناسب الثوب وحجم الشخص وفي ذلك مضيعة لجهد الفنان او النساج.[٤١]

وبالرغم من وجود تلك المحظورات او العناصر المنهى عنها فقد عثر على منسوجات زينتها كائنات بشرية وحيوانية كثيرة منها:

– قطعة من الحرير، محفوظة في مكتبة موركان بنيويورك، مصنوعة من الحرير الازرق والزهري والاصفر، يعود تاريخها الى القرن الثاني– الثالث الهجري/الثامن–التاسع الميلادي منسوجة في سوريا.تتكون زخارف هذه القطعة من عنصرين رئيسين هما طائران وقد اولى كل منهما ظهره للاخر، تفصل بينهما شجرة، وفوق هذا المشهد منظر اخر يتألف من حيوانين مجنحين متقابلين رسما ايضا على جانبي شجرة وتوزعت اشكال نجمية على بقية اجزاء القطعة.[٤٢]

– قطعة ثانية من الحرير، نسب تاريخ صنعها الى القرن الخامس–السادس الهجري/الحادي عشر – الثاني عشر الميلادي من مدينة بغداد، ومحفوظة الآن في متحف الفنون الجميلة في بوسطن تحت رقم (٣٧١–٣٣) ذات الوان مختلفة كالابيض والذهبي والبني والأصفر والأحمر والأخضر. العنصر الزخرفي الرئيس فيها رسم بهيأة جسم طائر ووجه انسان.

يتالف المشهد من دائرة كبيرة يتوسطها حيوان خرافي له وجه آدمي، ونصفه العلوي بشكل طائر جارح والسفلي بهيأة اسد.تفصل بين كل حيوانين شجرة يصعب تحديد نوعها لرسمها بعيدة عن اشكال الاشجار المالوفة في الطبيعة.اضافة الى طائرين ادار كل منهما ظهره للآخر ويلتفتان الى الخلف تجاه الشجرة الموضوعة بينهما ليتقابل وجهاهما.
وتقطع الدائرة الرئيسة اربع دوائر اخرى موزعة بالتساوي على جهاتها الاربع.وإضافة الى هذا الشكل الرئيس المذكور، تحتوي القطعة على اشرطة نباتية وكتابية وحيوانية تزين ارضيتها منسوجة داخل أطر هندسية.
تشير (ويبل) الى وجود شريط كتابي جاء فيه "عملت في بغداد حرسها الله". وتضيف الى ان هذه المرة هي المرة الثانية التي يذكر فيها اسم بغداد على نسيج حريري.كما عثر على قطعة مماثلة في اسبانيا مصنوعة ايضا في بغداد طبقا للكتابة الموجودة عليها.
وهناك احتمال في ان الانسجة التي صنعت في بغداد وتحمل اسمها قد خصصت للتصدير وان قسما منها حين يصل اسبانيا كان يقلد بايدي نُسّاج جاءوا من الشرق لعلة ان القطعتين متشابهتان لدرجة انهما تحملان على التفكير في انهما صنعتا في مصنع واحد وبيد واحدة.(٤٣)

الاستنتاجات

من خلال عرضنا لجانب من صنعة المنسوجات في العصور الاسلامية الوسطى يمكننا ان نتوصّل الى مايأتي:
ان لرجال السلطة والطبقة الثرية دوراً في تشجيع هذا الصنف من الصناعة وكان لهم الاثر فيما وصلت اليه هذه الصنعة من تقدم ورقي

وآية ذلك اتساع حلقات مجالسهم التي اتسمت كل حلقة منهـا وزيهـا الخاص الذي يتناسب مع خصوصيتها الموضوعية والإجتماعية وينتقى للخليفة منسوجات مختلفة من الألوان والأشكال تختلف بحسـب لقائـه بالمبعوثين الاغراب الوافدين لزيارة المدن العربية والاسلامية، فضلا عن فعاليات ومناسبات كان رجال الدولـة يسـاهمون بهـا كـالحج والخروج للجهاد وحضور الصلاة ايـام الجمـع والاعيـاد والصـيد وغيرها.

ان تعدد المناسبات الاجتماعية حتمت على الخلفاء ليس الظهور بمظهر لائق ومناسب بل ان يكون مظهرهم متميزا عن غيرهم فكان لابد من انشاء دور طراز خاصة بهم لسببين رئيسين اولا لسد احتياجات الخليفة المستمرة والكثيرة، والثاني منعا للتقليد الذي ربما يحدث فيها فيما لـو نسجت ملابس الخليفة في مصنع عام ينتج لعامة الناس ايضا.

ان وجود مصانع أو دور النسيج الخاصة بالخلفاء في بغداد وغيرها لم يمنع ان يأمر حاكم بغداد بصنع زي خاص له في مصر، التي عرفت منذ القدم بمهارة نساجها، فقد عثـر علـى عـدد مـن المنسـوجات المصنوعة في مصر لخلفاء عباسيين كالمهدي والرشيد والمأمون الذين عرف عنهم شغفهم بالملابس ذات الاشكال المختلفة ولايعني هذا بـأي حال من الاحوال ان مصانع العراق كانت تفتقر الى الصناعة المتينـة والذوق الرفيع.

اهملت كتب التراث التي عنيت بتسجيل الاحداث الصـغيرة والكبيـرة عن العصور الاسلامية الوسطى وصف دور الطراز رغم ان"الخاصة" منها كانت ملحقة بقصور الخلفاء. وتعوزنا الكثير من المعلومات عـن

العاملين فيها واشكال الالات المستخدمة في النسج ووصف لاماكن الانتاج وغيرها.

تعد المنمنمات التي زينت المخطوطات الاسلامية على اختلاف موضوعاتها خير وثيقة زودتنا بسمة الازياء.والذي نستقرِئه من هاتيك المنمنات ان الفنان لم يعر اهتماما كبيرا لرسم الملابس وترك حيزا في هذا المجال ومع ذلك نقول انها خير وثيقة لوضوح شكل الملابس، اذ نستطيع بسهولة ويسر ان نفرق بين قطعة واخرى. وان نميز الوانها وهو امر يصعب الوصول اليه فيما لو رسمت هذه الازياء على الزجاج او الخشب او المعادن مثلا.

ان الازياء المصورة في المخطوطات جاءت على غير مايتوقع، فهي متشابهة تشتمل على ثوب رئيس طويل بلون واحد، وقد يرتدي الشخص احيانا عباءة بلون يختلف عن لون الثوب الاصلي.اما الزخارف فهي، كما اسلفنا، اقتصرت على اشرطة ذهبية مرسوم عليها زخارف نباتية دقيقة او زخارف على هيأة حلزونات ترسم عادة باللون الاسود الداكن او الفاتح. ويلجأ الفنان، احيانا، الى تزيين الثوب بطيات او ثنيات مستخدما لونا واحدا بدرجات متعددة كالأسود والأبيض.

وقد تطهر بعض الاستثناءات المحدودة العدد ومنها:

• صورة التلميذان في كتاب "خواص العقاقير" لديسقوريدس، منسوب الى شمال العراق او سوريا، (٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، جامع السلطان احمد الثالث، رقم ٢١٢٧، ورقة ١و٢، مكتبة طوبقابوسراي، اسطنبول. يشاهد فيها ديسقوريدس بثوب طويل ذا طيات متعددة.وفي الصفحة الثانية من الكتاب نفسه يقف تلميذ يرتدي رداء مخططاً.

• من كتاب "مختار الحكم ومحاسن الكلم" ويعود الى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي، منسوب الى سوريا، محفوظ في جامع السلطان احمد الثالث، رقم٣٢٠٦، مكتبة متحف طوبقبوسراي، اسطنبول. يلاحظ في الورقة ١٧٣ ان الشخصين اللذين رسما في الوسط قوام زخرفة ثوبيهما خطوط صغيرة نظمت على هيأة انصاف دوائر، او عروق نباتية.

وفي الورقة ٢٤ من نفس المخطوطة زين ثوب الحكيم بدوائر ذات لون ازرق بدرجات مختلفة اضافة الى زخارف دقيقة بلون ذهبي.

• خلت ملابس الاشخاص المرسومة في مخطوطات كثيرة من الصور الحيوانية والادمية لاسباب وجيهة ذكرها الدكتور صلاح العبيدي.

واذا ماناقشنا بعض المسببات التي حالت دون تصوير الكائنات ذوات الارواح لوجدنا ان بالمستطاع استخدامها دون ان تسبب حرجا للمتزينين بها، فاذا كان استخدام صور البشر والحيوان على الثوب يقلل من قيمة الشخص في المجتمع لاسيما الرجال، ففي اعتقادنا أنّه مامانع من ان تحلي ذوات الارواح ملابس الاطفال او الجواري والغلمان، او ان يرتديها الرجال عند حضورهم مجالس طرب وشراب فمثل هذه اللقاءات ربما يستطيع الفرد ارتداء مايحلو له دون رقيب.ويعطينا الوشاء (ت٣٢٥هـ/٩٣٧م) في مؤلفه "الظرف والظرفاء" وصفا لملابس الجواري مشيرا الى الكتابات والاشعار التي حلت اردیتهن وعصائبهن وزنانيرهن وخفافهن. وجاءت هذه الكتابات منسجمة ونمط الحياة التي كن يعشنها فهي تحكي عن الحبيب وحسنه وهجره ووصاله.

يقول الوشاء انه كتب على منديل اهداه احد الظرفاء[٤٤]:

انا منديل مُحب لم يزلْ ناشفاً بي من دموع مقلتيه
ثم اهداني الى محبوبة تمسح القهوة بي من شفتيه

وكتب على دراعة(٤٥):

يارامیا ليس يدري ما الذي فعلا امسك عليك فان السهم قد قتلا
اصبت اسود قلبي اذ رميت فلا شُلت يمينك ان صيّرتني مثلا

هذا مايؤكده في كتابه ان النساجين المسلمين فضلوا استخدام الزخارف الكتابية على منتوجاتهم، وان المسلمين مالوا الى ارتداء الثياب الخالية من الكائنات الحية.

الهوامش:

(1) Weibel, A. C. Two Thousand Years of Textiles, New York 1952,p3.

(٢) ابن خلدون،عبد الرحمن بن محمد، تاريخ، بيروت ١٩٦٧، م١، ج٣، ص٧٢٢.

(٣) المصدر نفسه،ج٣،ص٧٣٣-٧٣٤.

(٤) البيهقي، ابراهيم بن محمد، المحاسن والمساوء، صححه محمد بدر الدين الجلبي الغساني، القاهرة١٩٠٦، ج١، ص٧٧-٧٨.

(5) Kuhnel, E., Catalogue of Dated Tiraz-Fabrics Umayyad, Abbasid, Fatimid, Washington 1952, p22.

(٦) مرزوق،محمد عبد العزيز، الفن الاسلامي- تاريخه وخصائصه، بغداد١٩٦٥، ص١٢٠.

(٧) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٣، ص٧١٤-٧١٨.

(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٧٢.

(٩) الزبير، الرشيد بن، كتاب الذخائر والتحف،تحقيق محمد حميد الله،قدم له وراجعه صلاح الدين المنجد،الكويت ١٩٥٩، ص٢١١.

(١٠) الجهشاري، ابو عبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة١٩٣٨، ط١، ص٦٠.

(١١) الزبير، المصدر السابق، ص٢١١.

(١٢) الجاحظ، عمرو بن بحر، التاج في اخلاق الملوك، تحقيق احمد زكي، القاهرة١٩١٤، ط١، ص١٥٤.

(١٣) المقريزي،تقي الدين احمد بن علي،كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار،القاهرة،ب ت،طبعة بولاق،ج٢،ص٢٩٨-٢٩٩.

(١٤) المختار،فريال،المنسوجات العراقية الاسلامية من الفتح العربي الى سقوط الدولة العباسية ببغداد١٩٧٦،ص٦٨.

(١٥) مبارك، علي،باشا، الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ط١، ج١، ص٥٠.

(١٦) المختار،المصدر السابق،ص٧٤.

(١٧)المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص٤١٣.

(١٨)المصدر نفسه، ج١، ص٤٦٩.

(١٩)المصدر نفسه.

(٢٠)الباشا، حسن، الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية، القاهرة١٩٦٥، ج٢، ص٢٦٢.

(٢١)الابشيهي، شهاب الدين محمد بن احمد ابي الفتح المحلى، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة١٩٥٢، ج٢، ص٦٠.

(٢٢)المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٦.

(٢٣)مبارك، المصدر السابق، ج١، ص٥٠.

(٢٤)المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٦.

(25)Kuhnel, op.cit.p.3.

(٢٦)الدمشقي، ابي البقاء عبد الله محمد البدري، نزهة الانام في محاسن بلاد الشام، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص٦٢.

(٢٧)ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي، معالم القربة في احكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن لوي، كمبردج١٩٣٧، ص١٣١-١٣٤.

(٢٨)المصدر نفسه، ص١٣٦.

(٢٩)المصدر نفسه.

(٣٠)المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٣١)المصدر نفسه، ص١٤٠-١٤٣.

(٣٢)الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة،اشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة١٩٤٦، ص٦٧-٦٨.

(٣٣)ابن الاخوة، المصدر السابق، ص١٤٢.

(34)Kuhnel, op. cit.,p3.

(35)Ibid.,p.3.

(36)Marzouk, M.A.A., The Evolution of Inscription on Fatimid Textiles, Ars Islamica, New york. 1968, Vol.I.PP. 164-165.

(37)Ibid., p164-165.

(38)Ibid., p177.

(39)Ibid.

(٤٠)العبيدي، صلاح، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والاثرية، بغداد١٩٨٠، ص٣٣٩.

(٤١) المصدر نفسه.

(42)Wiebel, op. cit., p17.

(43)Ibid., p97.

(٤٤) الوشاء، ابي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى، كتاب الظرف والظرفاء، القاهرة١٩٠٦، ط١، ص١٤٢.

(٤٥)المصدر نفسه، ص١٣٦

المصادر العربية

١- الابشيهي، شهاب الدين محمد بن احمد ابي الفتح المحلى، المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة١٩٥٢، ج٢.
٢- ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي، معالم القربة في احكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن لوي، كمبردج١٩٣٧.
٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ، بيروت١٩٦٧، م١، ج٣.
٤- الباشا، حسن، الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية، القاهرة١٩٦٥، ج٢.
٥- البيهقي، ابراهيم بن محمد،المحاسن والمساوء، صححه محمد بدر الدين الجلبي الغساني، القاهرة١٩٠٦، ج١.
٦- الجاحظ، عمرو بن بحر،التاج في اخلاق الملوك، تحقيق احمد زكي، القاهرة١٩١٤، ط١.
٧- الجهشاري، ابو عبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب،تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٩٣٨، ط١.
٨- الدمشقي، ابي البقاء عبد الله محمد البدري، نزهة الانام في محاسن بلاد الشام، القاهرة١٣٤١هـ.
٩- الزبير، الرشيد بن، كتاب الذخائر والتحف،تحقيق محمد حميد الله،قدم له وراجعه صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٥٩.
١٠- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، اشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٤٦.

١١- العبيدي، صلاح، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والاثرية، بغداد١٩٨٠.
١٢- مبارك، علي، باشا، الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ١٣٠٦هـ، ط١، ج١.
١٣- المختار، فريال، المنسوجات العراقية الاسلامية من الفتح العربي الى سقوط الدولة العباسية ببغداد١٩٧٦.
١٤- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي،كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، القاهرة، ب ت، طبعة بولاق، ج٢.
١٥- الوشاء، ابي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى، كتاب الظرف والظرفاء، القاهرة١٩٠٦، ط١.

ازار في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ في سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

ازار في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ من سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

قميص في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ من سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

قميص في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ من سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

) سروال في تصويرة من مخطوط مقامات الحريرى مؤرخ من هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

) سروال في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ من سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

) تكة وسروال ووشاح في غرة مخطوط كتاب الترياق مؤرخ من
من سنة ٥٩٥هـ (١١١٩م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

برده في تصويرة من مخطوط مقامات الحريري مؤرخ مـــن
سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .

ازار في تصويرة من مخطوط مقامات الحريرى مؤرخ من
سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس .